الإسهام في الحوالة شرف وواجب وطني ورسمي.

الجهل في العراق
حتى نهاية الحرب العالمية الثانية
من خلال قصص نوزاد أيوب

الدكتور عمر الطالب

این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است

المقدمة

ان الذي دفعني إلى اختيار قصص ذنون ايوب حتى نهاية الحرب العالمية الثانية لأستخلص من خلالها مساوىء الجهل واخطاره على الافراد والمجتمع هو ان ذنون ايوب اكثر كتاب القصة في العراق التصاقاً بحرفية الواقع واكثرهم نشدانا للأصلاح ، واهتماماً بتغير الواقع الاجتماعي من حالته المتردية التي كان يعيشها العراق في تلك الفترة من تسلط الاقطاع وتدخل السلطات الاجنبية وجهل ممثلي الشعب في مجلس النواب ، وسوء نظام الحكم الملكي، وتخلف الجهاز الاداري ، والتضييق على المرأة وحجزها في دارها لاتبرحه الا في النادر القليل وفي المدن فقط ، وتردي الاوضاع الاقتصادية والحيلولة دون العلم والتعلم ، ووقوف ذوي المصالح ضد انتشار المدارس،ومساعدة الجهة من المصلحيين من التسلط في امور الخلق وارزاق الشعب وحريته، وقد خصص ذنون ايوب كل مجموعة قصصية من مجموعاته التسع التي اصدرها حتى نهاية الحرب العالمية الثانية لموضوع معين من الموضوعات التي كانت تهم المجتمع العراقي آنذاك فقد عالج في (رسل الثقافة) ١٩٣٧ مسألة التعليم، وسلط الضوء على المساوى التي كانت تنوء بها وزارة التربية في جهازها الاداري ومدرسيها وفقدان العدالة في معاملة الطلبة . وناقش في مجموعته الثانية (ضحايا) ١٩٣٧ مشاكل المرأة وماتعانيه من ضغوط المجتمع والاسرة وعرض الاسباب التي كانت تقودها إلى الانحراف والقى باللائمة على الجهل الذي كان يسود المجتمع آنذاك وعرض في مجموعته الثالثة (صديقي) ١٩٣٨شخصيات قوية متحدية ترفض الواقع المرير الذي كان يعيشه الشعب العراقي وتسعى بسلوك رومانتيكي إلى تغيير ماهي قادرة على تغييره،فاذا وقف المجتمع المتخلف حائلا دون تحقيق ارادتها تمردت عليه وعاشت حياتها التي تبغي في عزلة عن واقع مجتمعها. اما مجموعته الرابعة (وحي الفن) ١٩٣٨ فهي صرخة في وجه الجهل والتخلف وبيان لاهمية الثقافة والفنون في حياة الشعوب . وعرض في مجموعته الخامسة (برج بابل) ١٩٣٩ اثر تردي الاوضاع السياسية وانتهازية رؤساء الاحزاب في حياة الشعب وتخلفه والوقوف

ضد اي تقدم او اصلاح ، وجاءت مجموعته السادسة (الكادحون) ١٩٣٩ صرخة في وجه الاقطاع والتسلط الاقتصادي وشهادة حق لما كان يعانيه الفلاحون في العراق من جهل وتخلف وخضوع وابتزاز ، وعاد في مجموعته السابعة (العقل في محنته) ١٩٤٠ إلى المشكلة الاساس في سوء الاوضاع العامة في العراق الا وهي سوء نظام الحكم وتسلط الجهلة والاغبياء وتسنمهم مقاليد الامور والتضييق على المفكرين والمخلصين من ابناء الشعب الساعي إلى التحرر والانطلاق من قيوده الثقيلة . وعرض الكاتب في مجموعته الثامنة (حميات) ١٩٤١ مساوىء الجهل والتخلف وماتسببه من امراض جسدية عند الفقراء ونفسية عند الوصوليين والانتهازيين، اما مجموعته الثامنة(الكارثة الشاملة) ١٩٤٤ فكانت صرخة في وجه الدكتاتورية ومسببي الحروب ووثيقة ادانة لكل الانتهازيين الذين ينسون الشعب ويفكرون في مصالحهم الخاصة فقط ولو كان ذلك عن طريق سحق الشعب واذلاله .

وقد توقفت عند هذه المرحلة لأن مجموعته العاشرة(عظمة فارغة)صدرت بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية وكانت تدور حول تجارب شخصية واحباطات خاصة لست في صدد مناقشتها وانا اعالج موضوع الجهل في قصصه . وهو المبرر الذي دفعني إلى عدم تناول مجموعاته الأخرى (قلوب ظمأى) ١٩٤٨ (و صور شتى) ١٩٥٤ و(قصص من فينا) ١٩٥٦ اما مجموعته الأخيرة (قرن اللاجئين) فلم تنشر الا ضمن آثاره الكاملة التي اصدرتها وزارة الاعلام العراقية عام ١٩٧٧ .

وبعد استقرائي للمجاميع القصصية التي اصدرها ذنون ايوب حتى نهاية الحرب العالمية الثانية وجدت ان الكثير من القصص يدور حول الجهل والتخلف وهو يعالج الموضوع من ناحيتين اساسيتين : اسباب الجهل ونتائجه وقد ارتأيت ان اقسم البحث إلى قسمين اساسيين : القسم الاول عن الاسباب التي دعت إلى انتشار الجهل في العراق كما يعرضها الكاتب في قصصه. والقسم الثاني النتائج التي يؤدى اليها الجهل والمساوئ الكثيرة التي تنتج عنه

القسم الاول
اسباب تفشي الجهل

ان مسببات الجهل في قصص ذنون ايوب كثيرة ومتعددة .

(١) طبيعة نظام الحكم :

لقد كان سوء نظام الحكم الملكي السبب الأول في شيوع الجهل والتخلف في العراق ، يقول ايوب في مقدمة مجموعته (العقل في محنته) :

« وكما يهذي المحموم عندما ترتفع حرارته كذلك يسف العقل ويتقهقر المنطق في كل أمة . عندما تصاب تلك الأمة بالحمى...ان مكروب الحمى عند الامم هو الأفكار العفنة والآراء البليدة وسبب العدوي في هذه الامراض افراد في تلك الأمة يولدون في مستنقع الرجعية الموبوء ... وعلامات هذه الامراض واضحة لا تحتاج الى محرار أو سماعة بل يكفي لأدراكها حواس سليمة وعقل يقظ يميز بين الغث والسمين بسهولة ويسمي الاشياء المختلفة باسمائها الصحيحة ولاّ يخلط بينها » . (١)

وهو يرى ان الخلاص لا يتم الا على ايدي المفكرين المخلصين في الأمة، وان العلم والثقافة هما الطريق الوحيد الذي يجب ان يسلك لذا هو يهدي مجموعته القصصية آنفة الذكر الى « من كتب عليهم الشقاء الابدي في سبيل خير البشرية ، إلى رجال الفكر والمصلحين في كل عصر وحين » (٢) .

ان سبب تفشي الجهل بين ابناء الشعب يعود الى تسلط الحاكم وتدخل الأنكليز في سياسة الدولة كما يعرضها في قصته (مصرع العقل)،وتدور القصة حول الحاكم (الراجا).وقد اتخذ الكاتب الهند رقعة تدور عليها احداث قصته، للتشابه الكبير بين الأوضاع السياسية والاقتصادية والأجتماعية بينها وبين العراق ، وقد لجأ محمود احمد السيد إلى اتخاذ الهند مكاناً تدور فيه احداث قصته الطويلة (في سبيل الزواج) الصادرة عام ١٩٢١ .

(١، ٢) الآثار الكاملة لأدب ذي النون ايوب، ٥٠٣، ٥٠٢

ان الراجا يسير بوحي من الانكليز ، ويعين (كالاصاحب) وزيرا للثقافة والتعليم حسب تخطيطهم لنشر الجهل والقضاء على الثقافة ، وكالاصاحب مريض بالصرع شاذ الطباع والسلوك وهو يرى في العلم والثقافة عدوين لدودين له،لذا هو لايتوانى عن التنكيل بالعلماء والمفكرين،فيتخاذل المثقفون وترتعد فرائصهم خوفا وهلعاً ، وتبدأ محنة العقل هناك. واذا سعى كالاصاحب إلى اقفال المدارس والمعاهد العلمية : « وعندما استلم كالاصاحب امر الراجا السامي في تعينه بهذا المنصب الهام اصابته نوبة من الصرع وصار يهذي ومريدوه من حوله يسجلو ن هذيانه ليصبح حكمة خالدة يتناقلها الابناء عن الآباء. ووضع كالاصاحب خطته المحكمة لاعادة مجد البلاد فصرح بأن عليه قبل كل شيء ان ينظر في أمر تلك المدارس العصرية التي كانت السبب في كل هذا الفساد فقرر اقفال معظمها وتحويل القسم الآخر إلى مدارس من الطراز القديم يتعلم فيه الاطفال تاريخ اسرة الراجا العظيم وكيف صعد أحد اجداده إلى السماء واصبح إلها . » (١) ان الشعب الجاهل الذي كان يغض الطرف عن فساد حكم الراجا يستيقظ بعد ان مس شعوره القومي لتدخل الانكليز السافر في شؤون البلاد الداخلية : « ولم يجدوا لهم انصارا كثيرين بين ذلك الشعب الذي ينظر إلى الراجا كما ينظر إلى اله . ولكن همساً غريباً حول بذخ الراجا واسرافه صار يسري بين الناس وكان البعض يطعن فيه خضوعه لسادته الأنكليز » (٢)

ان الشعب بدأ يستيقظ عن طريق مثقفيه المخلصين الذين سعوا إلى تخليصه من كالاصاحب المجنون والراجا المستبد الخائن لوطنه الخادم للمصالح الاجنبية . وكا ن الكاتب قد تنبأ لنهاية النظام الملكي على يد الطليعة المثقفة الواعية التي امت التعليم بعد ذلك وسنت قانوني التعليم الألزامي ومحو الامية .

ويعود في قصته التالية (غريب في القطيع)إلى تأكيد رؤيته السابقة ويعتبر سوء نظام الحكم السبب المباشر في استحكام الجهل وسيطرته على عقول افراد

(١،٢) العقل في محنته، ١٦، ١٥

الشعب ،فاذا ما قام بينهم رجل يسعى إلى تبصيرهم بحقيقة الأمور وتوعيتهم، خاف الحاكم على مكانته ان تتزلزل، وأثار الشعب ضد الرائد المصلح لينتهي نهاية مأساوية . وقد استعان ايوب في هذه القصة بالرمز فاستعار للعراق بقعة في امريكا يسكنها الهنود الحمر . فقد نشأ (بندلالا) وترعرع في قبيلة فقيرة تتعبد آلهة دموية ، وتعتمد في غذائها على لحوم البشر فمن يبلغ منهم الاربعين يقدم ضحية للآلهة ويكون طعاماً لافراد القبيلة،ويسجن بندلالا لأنه يرفض ان يشرب من دم ابيه او يأكل من لحمه بعد أن قدم ضحية للآلهة ، وفي السجن يتحدى بندلالا آلهته ويعبر نفقاً من المعبد الذي سجن فيه ، ويتشرد طويلا طالبا المعرفة والعلم وينتهي به المطاف إلى قوم آمنين يعيشون برغد وسعادة . يستبد الشوق ببندلالا إلى وطنه ويصطحب معه علماء القوم أملا منه بنشر الرغد والسعادة بين قومه،وعندما احس رئيس القبيلة بالخطر الذي يتهدد مركزه اذا ماانتشر العلم وعمت الثقافة بين افراد قومه أثار قومه الجهلة ضد بندلالا وصحبهم ، فاحرقوهم .

يستعين الكاتب بسخريته اللاذعة من الجهلة فينطق طاهي الملك وهو يواسي رجلا طفق يبكي على ابنته التي قدمت قربانا للاله «لاتحزن ايها الرجل فقد سمعت الملك يطري لحم ابنتك ويمتدحه »(١) . ويوضح الكاتب ان الجهل الذي يسببه الحكام ويسعون إلى نشره بين افراد الشعب ،يعود بالوبال على ذلك الشعب، فاذا ماانصتوا إلى مثقفيهم ومصلحيهم عمد الحكام إلى بث الشك في نفوسهم ضد هؤلاء المصلحين : «اما اساطير الدين فيجب ان تكون دائما باتصال مع العلم والمنطق العقلي والا فقدت قيمتها اذ يتقدم عليها العقل ثم يهملها ويحتقرها ويثور عليها وهذا نصيب التقاليد ايضاً ... ولما انتهى بندلالا من خطابه نظر الملك في وجوه الناس فرآها منطلقة مستبشرة ... ولما انتهى الملك من كلامه سرت دمدمة رعب وسخط على بندلالا وتقدم الكهنة وساقوا بندلالا إلى المحرقة بين صياح الجمهور والتعطش إلى الانتقام ».(١)

(١) العقل في محنته، ٢٩

ويؤكد ذلك ايضا في قصته (شيوعي من الملايو) حيث يعتمد الحكام على الافراد(١) السيئي الخلق الحاقدين على الشعب ويولونهم المناصب الحساسة : « ومن جملة هذه الاحتياطات .. التي يتخذها الحكام — فتح ملفات شخصية تدون فيها كل ما يخص اولئك الافراد من التلاميذ الذين يؤمل منهم تقدم في العلوم يصاحبه تأخر في الاخلاق واعجاب كبير بالهولنديين فتختار منهم من تأمن غدره وتثق باخلاصه » (٢) .

ويدين ايوب وباسلوب مباشر في قصته(عاشق) السلطات الحاكمة ويتهمها بانها السبب في تأخر الشعب وجهله : «وثار عليه اصحاب المناصب يوم أعلن أن هذه المناصب ليست الا لخدمة الجمهور الذي يدفع من عرق جبينه ماتتطلبه من رواتب ومصاريف وانهم خدم الجمهور وليسوا سادته فليس من حق الخادم ان يضطهد سيده » (٣) .

(٢) جهل ممثلي الشعب في مجلس النواب

من المعروف لدى دارسي تاريخ العراق الحديث أن مجلس النواب العراقي كان يضم بين اكثرية اعضائه ممثلين أميين عن الشعب تفرضهم الحكومة عن طريق التزوير في الانتخابات أو عن طريق الرشوة وكان جلهم من الاقطاعيين والشيوخ والاغوات،وقد تعرض ذنون ايوب إلى هذه الظاهرة في العديد من قصصه ، ففي قصة (الدرجات النهائية) يصور الحصار الذي يعانيه مدرس مخلص في عمله من قبل الاقطاعي النائب والذي يطلب اليه عن طريق مدير المدرسة اولا ثم باتصاله المباشر ان ينجح قريبه الطالب الكسول الذي لايستحق النجاح ، فاذا مارفض المدرس خيانة واجبه هدده بالنقل ، وعندما يصر المدرس على موقفه يستخدم النائب اساليبه الخاصة للتنكيل بالمدرس ونقله إلى منطقة نائية معتذرين بتهاون المدرس وعدم تأديته لواجبه بالشكل المطلوب : «وحاولت عبثاً ان افهمه معنى النظام وضرر هذا النجاح للتلميذ نفسه اذ سد اذنيه وأجابني في النهاية بقوله — لااستطيع ان افهم شيئاً مما

(١،٢،٣) العقل في محنته ٣٧ — ٣٩ ، ٧٦ ، ٤٦

تذكر ولكني اعلم ان الأمر كله بيدك وهو لايكلفك اكثر من جرة قلم . ولم ارمناصا منه الا بأن أعده خيراً او لما خرج سمعته يقول لخادمه : لعن الله الوقت الذي أصبحنا فيه تحت حكم المعلمين . وفي اليوم الثاني تلقيت من أحد أقاربي رسالة ينبئني فيها بأن بعض معارفه من الوجهاء غير راضين عن طريقة معاملتي وجهاء البلد الذي أعمل فيه . وأن أخباراً لاتسر قد وصلتهم عني ويوصيني بأن افهم مركزي ولا اتعداه » (١) .

اما بطل قصة (تاريخ وجاهة) فهو مثال للرجل الانتهازي الجاهل الذي يسعى إلى تحقيق مصالحه بوسائل غير مشروعة ويتحكم في مصير الخلق وهو يؤكد ذلك باسلوب مباشر في قصة (حينما تثور العاصفة) عندما يصف الاقطاعي والنائب عن الشعب في مجلس النواب العراقي : «يمتاز على غيره بالجهل المطبق والثروة الطائلة وهو لايتنازل حتى إلى تعلم القراءة أو الكتابة بلغته الوطنية ... مثل هذا يعرف كيف يحرك أولي الأمر باشارة فهو يملك من البشر مايجعله يسخر بكل مافي دولتك من ساسة وموظفين كبار اولئك الذين يبرزون كل قوتهم في سن القوانين السخيفة لاصلاح مكينة الدولة»(٢).

ان السلطة الاقتصادية التي يتمتع بها الاقطاعيون إلى جانب سلطتهم السياسية مع جهلهم وسوء خلقهم وتبذير أموالهم على البغايا والقمار : «ودخلنا ملهى فخما ... وجلسنا قرب منضدة يحتلها ملاك يحكم الالوف من الفلاحين ، وكان موضع اهتمام مدير الملهى وخدمه لانه يمتاز على غيره بالجهل المطبق والثروة الطائلة وكانت تنادمه راقصة من واردات بودابست وبراغ ومن البديهي ان يجهل الشيخ لغة السيدة فهو لايتنازل حتى إلى تعلم القراءة والكتابة بلغته الوطنية » (٣) .

لقد كان هؤلاء الجهال من النواب احد العوامل في سوء نظام الحكم الملكي

---

(١) الآثار الكاملة حـ١، ٤٧

(٢) صديقي، ٦٣ – ٦٤

(٣) الآثار الكاملة حـ١، ٢٠٤

في العراق وسيادة الفوضى السياسية والقانونية والأدارية : «وتحدث هذه العواصف العنيفة عادة عندما تسقط وزارة وتتشكل وزارة اخرى بطريقة عنيفة ، اي عندما يلجأ عدد من الشخصيات البارزة إلى القوة لازاحة أولئك الذين استمروا الجلوس على الكراسي المريحة وأبوا التخلي عنها مع أن مدتهم قد انتهت وأظن ذلك يعود إلى ما في الكراسي من سحر يجبر الأنسان على الا يتركه باختياره .. فتزيل من طريقها كل انصار عدوتها بدون رحمة أو شفقة لتضع في محلهم اعوانها » (١) .

(٣) جهل ادعياء الدين :

اذا كانت السيطرة الاقتصادية والسياسية للأقطاعيين الجهلة في العراق آنذاك فان السيطرة الدينية على الشعب الفقير الجاهل كانت معقودة لأدعياء الدين ممن نصبوا من انفسهم مراقبين على أموال الفقراء واعوانا للأقطاعيين الجلادين المتسلطين . هذا ماتردده قصص ذنون أيوب باستمرار مؤكدة أن هؤلاء الاعوان ليسوا أقل جهلاً من أسيادهم الاقطاعيين ، فهم يخالفون شعائر الدين الحنيف ويسعون إلى تعميم الجهل والمطالبة بغلق المدارس والوقوف ضد التعلم والثقافة بوقاحة واصرار ولنستعين بقصة (نهاية) كمثال لهذه الظاهرة : « .. أتعني هذا المرابي الذي يحتال على الله والقانون في تقاضي الربا الفاحش ؟

— اياه أعني

— ولكن هذا ممن أصبحت لديهم الفرائض عادة شخصية لاتأثير لها على اخلاقهم.

— وما قولك بالشيخ صالح الذي صرح علانية بوجوب غلق المدارس لانها تبث الكفر وقتل كل من تسول له نفسه ارتكاب مايسميه بالمحرمات ومقاومة كل مايسمى تجدداً أو اصلاحاً.أترى ربه يسر من عمله هذا الذي

---

(١) صديقي، ٤٤

يضعف شعباً بأسره ويجعله طعمة سائغة لكل ذئب مفترس ومستعمر زنيم أو ظالم طاغية ؟ ... اني على يقين بان ربي بريء من هؤلاء » (١) .

(٤) جهل الاسرة :

تلعب الأسرة الدور الأول والأساس في توجيه الصغار ، والاسرة هي التي تحدد مستقبل أطفالها وطريق سيرهم في المستقبل ، وقد كانت سيطرة الأب الاقتصادية في الأسرة العامل الأساس في توجيه الصغار إلى العمل والكسب لمساعدة الأب في الأنفاق على الأسرة ، وكان الآباء يفضلون ان يعمل أولادهم على أن يذهبوا إلى المدرسة للتعلم نتيجة لانخفاض مستوى الدخل القومي والدخل الفردي معاً . وقد أدى الجهل الذي كان يلف الاسرة العراقية الى نهايات محزنة بالنسبة لأبنائهم قد تودي بحياتهم . وقد جسد ذنون أيوب هذه الظاهرة في قصصه كما في قصة (طريق الخلاص) على سبيل المثال . فالأم تكثر من تدليل ابنها والأب يعطيه أكثر مايحتاج أمثاله من المال حتى أضحى شخصاً فاسداً لايصلح لشيء فهو كثير الرسوب متأخر في دراسته. واذا ماحاول والده حثه علي الدراسة أجابه قائلا : ولكن ألا تعلم يابابا أن المدرسين يكرهونني لأنني لا اتبصبص لهم . ولأنني من عائلة بارزة ومن عاداتهم ان يحاولوا الحط من قدر امثالي ليرتفعوا في أعين بقية التلاميذ فلو توسطت لي عند معارفك الكثيرين من ذوي الشخصيات البارزة لتمكنت من الحصول على درجات النجاح » (٢) .

وتؤكد القصة بان السبب في تخلف الابن وعدم قدرته على التعلم يعود إلى جهل الأب وعدم تفهمه لاسلوب التربية الحديثة .

وبقدر مايدلل الوالدان ابنهما يحاصران ابنتهما ويضيقان الخناق عليها، فهما يسعيان الى تزويجها من رجل لاتريده بالرغم من توسلاتها الكثيرة لان يدعوها تدرس وتتعلم ، ولكن والديها يعتقدان بأن المدرسة دار فساد

---

(١) الآثار الكاملة، ٢٤٢

(٢) م. س، ١١٨

وأن البنت الشريفة يجب الا تذهب إلى المدرسة: «ليتها لم تذهب إلى المدرسة ولم تتعلم، ليتها بقيت نعجة تساق إلى الذبح وهي تحسب نفسها ذاهبة إلى المرعى فلا تشعر بكل هذه الآلام ولا بألم السكين الباردة الا لحظة واحدة، لاإنسانة ترى الألوف تذبح أمامها حتى يأتي دورها. ان هذا فوق الطاقة البشرية فوق الاحتمال» (١).

ولم يكن الزوج الذي قيدت اليه الابنة بأحسن حالاً من والدها فهو جاهل ايضا لايفكر الا بملاذه ومتعه والمال الذي يحصل عليه: «وعلمت العروس المسكينة تفاصيل الخبر فادركت انها مخطوبة لمركز عائلتها، وانها ستذهب إلى دار هذا الرجل لتسام الخسف والهوان من هـذا الزوج الجاهل العربيد، وسيسد ابوها اذنه بزعم ان المرأة يجب ان تطيع الرجل، وستنظر الأم اليه نظرة الحقير إلى العظيم، واخوها جبان، اذن فالويل لها» (٢).

لقد ضاقت الأرض على رحبها بالفتاة المسكينة ولم تر مفراً من الانتحار في ليلة عرسها، وهكذا ذهبت ضحية جهل وتخلف الأبوين، ولكن الأب لايحزن لفقد ابنته قدر حزنه من الفضيحة التي سببها انتحار الأبنة، اما الأخ الجاهل فيلقي باللوم على المدارس التي تفسد الفتيات: «الويل لنا لقد فعلتها، دبرونا ياناس، ستسبب هذه الحادثة فضيحة لنا.

وعندما يجيب العريس مواسياً: .. لاتهتم كثيراً من هذه الناحية ياعمي فسأتدراك الأمر بمالي من نفوذ عند أولي الشأن.

اما كاظم .. الأخ ... فكان يمسح دمعة كاذبة في فترات متباعدة ويتمتم: الويل للمدارس فهذه احدى نتائجها» (٣).

وكثيراً مايقود اسلوب التربيةالمتخلف وجهل الأم المطبق إلى نشأة الأولاد نشأة شاذة وغير طبيعية لكثرة استعانتها بما يصفه السحرة والمشعوذون من عقاقير ضارة بصحة الصغار قد تودي بهم إلى الجنون كما في قصة (النبي).

---

(١) م. س، ١٢٢

(٢) م. س، ١٢٣

(٣) م. س، ١٢٧

فقد نشأ بطل القصة وحيداً مع أمه التي أولته من العناية والتدليل الشيء الكثير فأصبح انطوائياً منعزلا عن أقرانه يسخر منه الصبية ويسمونه المجنون ، وقد كان مرهف الحس ، كثير الطيبة ، فاذا ماعتدى عليه الصبية قابلهم بالصمت والتسامح ، ولم تحاول أمه الجاهلة ان تعينه على مجابهة الحياة أو تخرجه من عزلته ، ولم تكن تعرف حالته العصابية حتى ترعرع وازداد انفصاله عن بيئته وبدلاً من أن تأخذه إلى الطبيب المعالج: «كانت تلك الحادثة مبدأ اقتناع أمه بجنون وحيدها فلم تترك مزارا الا قصدته ولا تمائم دون ان تعلقها برقبته، ولا شيخاً دون ان تذيق ابنها من بصاقه ، ولكن مساعيها ذهبت ادراج الرياح » (١) .

وهكذا انتهى الولد النابه نهاية مؤلة بسبب جهل أمه وعدم قدرتها على تربيته تربية صحيحة ، فلو حظي بجو مناسب لتنشئته لكان في الأمكان أن يصبح عضواً فاعلا ومنفعلا مع مجتمعه ولكن الجهل السبب في الضياع والخسران دائما.

وقد يقود جهل الأخ وتخلفه إلى اكثر من مشكلة ومأساة ، وتعرض قصة (شرف) مأساة كانت شائعة في العراق سببها جهل الأخ وتخلفه ، يعير احد جلاس الأخ في المقهى ، وهما يلعبان النرد ، بانه رأى اخته تحدث جارهم . فاسرع الأخ إلى الدار وقتل اخته غسلاً للعار وسط تهليل الجمهور الجاهل وثنائه حتى ان الصغار لكثرة ماسمعوا من اطراء لهذا الأخ راحوا يلعبون لعبة القتل : «ثم سأله عن سبب ركضه وراء اخته فاجاب : .. اريد ان اقتل صفية مثلما قتل حمد أخته .

وضجّ الرجلان بالضحك واختطف الرفيق السكين من يد الصغير ثم قبله من عينيه وهو يقول ضاحكاً : عفيه ابنى صير سبع مثل ابوك » (٢) .

إن هذه الجريمة الشنعاء سببها الجهل والتخلف فالفتاة لم ترتكب اثماً إلا أنها كلمت جارها كما تكلم الأخت أخاها :« هذا صحيح ياأفندي ،لقد رأيت

---

(١) م. س، ٣٢٤

(٢) م. س، ١٣٤

جدوعاً وزينب يتكلمان في كثير من الاحيان كما نفعل نحن العوام كثيراً .ولم يثيرا شبهة في نفسي ولكن لما يصبح الشرف في الوسط يختلف الأمر ويهون كل شيء (١) » . هذا مايعترف به مثير الفتنة أمام المحقق ،فهو متأكد من براءة العلاقة بين الشابين ولكن الجهل يشوش عقول الجهلاء فيدفعهم إلى قول ماتسطره عقولهم الجامدة الغبية .لذا ارتبط الشرف بالدم في أذهان جيلنا حيث كان الجهل متفشياً والمتعلمون قلة وهو مادفع الكاتب إلى الربط بين الشرف والدم في بداية قصته :« الشرف والدم كلمتان ارتبطتا في ذهني برابطة قوية فما طرقت مسمعي كلمة الشرف إلاّ وتصورت الارض قد صبغت بالنجيع الأحمر ،ولم أسمع بحادثة قتل أوسفك دم إلاّ ويخيل لي أن للشرف اصبعاً في الأمر ،ولو سألني سائل عن سر هذه الرابطة بين كلمة تدل على السمو والرفعة وأخرى تدل على أقصى درجات الهمجية والانحطاط لما وجدت جواباً »(٢).

وهكذا كان جهل فرد من أفراد الاسرة سبباً في تولّد الجرائم وعدم حياةإنسان فاعل في المجتمع دون سبب معقول .

وقد تسبب الزوجة الجاهلة الشقاء لنفسها ولأسرتها وزوجها .إن الخطر الذي يهدد الأسرة نتيجة لجهل الزوجة قد يكون فظيعاً جداً كما عرضه ذنون أيوب في قصة (مجنون) فقد قادت الزوجة في هذه القصة زوجها إلى الجنون بسبب جهلها وايمانها بالخرافة والسحر والشعوذة ،لقد شعرت الزوجة بأن زوجها على علاقة بامرأة أخرى فاستعانت بالساحر ليعيد لها زوجها من أحضان المرأة الأخرى، وقد ابتز الساحر هذه الزوجة الجاهلة وأعطاها عقاقير سامة تمزجها لزوجها بالماء والطعام فصدعت بما أمر حتى قادت زوجها إلى الجنون :« واتته بقدح منهممزوجاً بعقاقيرها إلى النصف فشربه دون أن يحس له طعماً ،وأحس بالكسل والارتخاء فقصد فراشه في سبات عميق .وانتبه في منتصف الليل فوجد نفسه غارقاً في العرق ولم يجد زوجته بجانبه ومرت برأسه فكرة جهنمية هائلة ،ألا يمكن أنتكون

(١) م. س، ١٣٤

(٢) م. س، ١٣١

زوجته قد ذهبت لتقابل عشيقاً كما فعلت احدى رفيقاته مرة عندما وضعت المخدر لأمها كيما تستمتع به طويلاً؟ ومن غرائب الصدف أن تكون زوجته في تلك اللحظة خارج مخدعها ...ومن يزور مستشفى المجانين يرى سليماً غارقاً في حزنه وكآبته ويروي لكل الزائرين أخبار خيانة زوجته ويندب الفضيلة والعفاف والشرف الذي لم يعد لها وجود ويروي أخباراً معظمها مضحك على الرغم من تلك اللهجة الجدية التي يروي أخباره بها » (١) .

لقد جنت الزوجة بجهلها على زوجها وعلى نفسها ،وكانت عقاقير السحرة السبب المباشر في انحدار زوجها إلى هوة الجنون .

أما الزوجة الجاهلة التي حطمت حياتها في قصة (زوجته) فقد كانت بعيدة الفهم لأفكار زوجها ومستوى ثقافته ، فالزوج في سلم المعرفة والزوجة جاهلة لذا تولدت بينهما هوة سحيقة ،فهي ترى في تصرفاته شذوذاً يبلغ حدّ الجنون وهو يرى فيها امرأة تافهة لاتستحق أن تكون زوجة له .فقرر ان ينفصل عنها ويطلقها رغم حبها الشديد له وتعلقها به ،وقد كان جهلها سبباً في انهيار حياتهما الزوجية وانهيارها هي أيضاً :« وتركتها مغرورقة العين ذابلة حزينة كئيبة تذوب وجداً كتمثال من الثلج قد تسلطت عليه أشعة الشمس المحرقة »(٢) .

(٥) تخلف الجهاز التعليمي :

لقد عرفت وزارة المعارف العراقية بتخلف جهازها الاداري وشيوع المحسوبية والرشوة فيها حتى نهاية الحرب العالمية الثانية .وكان موظفوها من الموظفين التقليديين الذين لم يكن يهمهم شيء كاهتمامهم بمصالحهم الخاصة .ربما أن ذنون أيوب قد اشتغل بالتعليم لفترة طويلة فهو مدرك كل الأدراك لسوء الجهاز الاداري في وزارة المعارف وتخلف المشرفين التربويين واهمال المدرسين وقد جعل مجموعته الأولى (رسل الثقافة) ١٩٣٧ قاصرة على كشف الفضائح والمعايب التي حدثت في

---

(١) م. س، ١٥٧ — ١٥٨

(٢) م. س، ١٨٥

وزارة المعارف في تلك الفترة فهو في قصته (قلب المعركة) يفضح تخلف المشرفين التربويين وانتهازيتهم ،وتدور القصة حول معلم جاهل وصل إلى (التفتيش) كمشرف تربوي عن طريق الرشوة والتوسل والوساطة ،وهو انسان انتهازي متلون كما يعرفه أيوب من خلال القصة يسعى إلى تحقيق مصالحه الخاصة بأية وسيلة كانت : « وقد أدرك مافيه من نقائص فسعى لتكميلها بطرق شتى ،منها أنه انتمى إلى أقوى الجمعيات ذات النفوذ وأكثرها سطوة على الدولة وتأثيراً فيها . ولم يكتف بذلك بل شرع يقدم الهدايا ويبذل المال في سبيل ارضاء ذوي النفوذ وأصحاب الشخصيات البارزة من شعراء وأدباء ورجال أحزاب وقد سقط من جراء ذلك تحت وطأة الديون حتى حجز ثلث راتبه إلى أمد غير محدود ولكنه حصل على أضعاف هذا الثلث المقطوع من الزيادات والعلاوات والمخصصات فكان حسابه دقيقاً جداً (١) وحدث أن سقطت الوزارة وتسلم وزارة المعارف شخص آخر سعى إلى الاصلاح فأحدث تعديلات في وظائف المشرفين والاداريين «عاد بطل القصة إلى التعليم ثانية ،ولكن أيوب لم يدع لنا أملاً في تحسن أوضاع وزارة المعارف بل هو متشائم من تحسنها : « وتقوم باصلاح شامل تتناول فيه كل شؤون التعليم ومرافقه. وفي مثل هذه الظروف تضع الوزارة الجديدة منهاجاً اصلاحياً طويلاً لايختلف عما وضعته سابقتها وتبدأ العمل بنفس الطريقة التي تنتهي إلى نفس النتيجة أي السقوط بعد ستة أشهر (٢) » ونحن نعلم بأن مهمة الاشراف التربوي كبيرة جداً في مجال التعليم والتعلم فكيف إذا كان أمثال هذا المشرف يملأون ساحة الاشراف التربوي في وزارة المعارف ؟

ويعرض أيوب في قصصه أيضاً ، خضوع مديري المدارس إلى ذوي النفوذ ومحاولتهم التدخل في تقديرات المدرسين العلمية للطلبة ،والعمل على التزوير لأنجاح طلبة راسبين يتمتع ذووهم بمكانة اجتماعية أو سياسية خاصة . كما في قصة (الدرجات النهائية) وتدور القصة حول الغبن الذي يلحق بالطلاب الفقراء والمساعدة الكبيرة التي يحظى بها الطلاب الاغنياء . وكيف تحول درجات الرسوب

---

(١) م. س، ٨٤

(٢) م. س، ٨٤

إلى درجات النجاح وبالعكس ،وإذا ماالتزم مدرس بالجد والاخلاص في العمل حوصر من قبل المدير واستخدمت معه مختلف الضغوط لانجاح طلبة راسبين خشية من سطوة ذويهم وتسلطهم الاجتماعي والاقتصادي والسياسي في تلك المنطقة :« مدحت حسن ؟ هل رسب »؟ !

ـ أجل هو وثلاثة آخرون ولست أستغرب هذه النتيجة ،فهو أكسل التلاميذ في كل الفصل وأقلهم دواماً واهتماماً بالدرس .

فعاد إلى النظر في القائمة بهيئة من لم يقتنع ومضى يتمتم : ـ ومن هم الآخرون ؟ يالهي كنعان عمر ورأفت عزت هل تراك قد تعمدت أن ترسب أولاد الذوات ستوقعني في ورطة لانجاة لي منها ومن ؟ هذا حسون أيضاً ؟ ومع أنه ليس من أولاد الذوات ولكني تلقيت توصية بخصوصه من ثلاثة نواب ،لاشك اني من الهالكين . لقد رسّبت الأربعة الذين سيثير رسوبهم مشكلة ولو رسب عشرون غيرهم لما همني الأمر ،من فضلك ياعزيزي أعد النظر في أوراقهم ..سجل لهم درجات النجاح مهما كان الأمر »(١) .

وينتهي الأمر بهذا المدرس المخلص الذي رفض التزوير وأنجز واجبه بأمانة واخلاص إلى النقل لمنطقة نائية وتعرضه إلى الاهانة والضرب من قبل أعوان ذوي التلاميذ من الاقطاعيين والنواب والمتنفذين .

وقد يبلغ جهل مديري المدارس حدا أعظم من هذا فيرفضون قبول الطلبة الاذكياء في مدارسهم ،ليفسحوا المجال أمام الطلبة الاغبياء من الاغنياء والمتنفذين، كما في قصة (ابن البناء ينشد العلم). فقد سعى البناء الفقير إلى التقتير على نفسه بغية ادخال ابنه (خالد) المدرسة وقد تفوق في دراسته الابتدائية وكان من الأوائل في فصله .وحينما قدم إلى المدرسة الثانوية رفض المدير قبوله فيها لأن الفصل لايتسع وان ميزانية وزارة المعارف لاتساعد على فتح عدد أكثر من المدارس وكاد خالد أن يصاب بالانهيار لهذا الظلم الاجتماعي الكبير :« شعر خالد في

---

(١) رسل الثقافة، ٤٣

ذلك الحين بأن الدنيا تضيق به فصار يتسكع كل يوم حول المدرسة مع عدد كبير من رفاقه لعل الله يفرجها عليهم فيكون لهذه الأزمة حلّ ... وبينما هو ذات يوم في دورته اليائسة على المدارس والدوائر إذ عثر به مدير المدرسة الابتدائية التي تخرج منها ففاجأه بدون مقدمة :

— انك بدون مدرسة ياخالد ما أصعب ذلك على تلميذ مجتهد ! لو كانت الأمور تسير بصورة طبيعية إذن لكان لك شأن »(١) .

ولكن خالداً لم ييأس وألح على المدير أن يقبله لأن معدله مرتفع جداً وقد قبلوا من هو أقل منه في سلم المعدلات فاحمر وجه المدير وصاح به « — سوف أكتب للمعارف لتمنع قبولك في كل المدارس ياقليل الأدب .

ولما خرج قال الوجيه — وكان جالساً في غرفة المدير لتسجيل ابنه في المدرسة — حقاً إن أبناء العوام أناس سفلة ، لماذا تفتحون المدارس لهم ؟ أما سمعت المثل القائل يالطيف من المعيدي إذا تحضر . فقال المدير : — هو ذنب الحكومة فباستطاعتها أن تسن قانوناً صريحاً تمنع الفقراء من الدراسة مادامت المدارس قد ضاقت ولكنها ضعيفة كما تعلم »(٢) . بهذه العقلية المتخلفة كانت المدارس تدار فلا عجب أن يسقط ميزان العدل وتغمط الحقوق وينتشر التخلف ويعم الجهل .

أما خالد فقد كان مصراً على أن هذه الأوضاع الشاذة لن تستمر وشمر عن ساعده للعمل مع والده وكله اصرار وتفاؤل : « واخيراً قال الولد بلهجة اصرار وحزم : لا تبتئسي ياأماه فسأنزع أنا وأبي القوت لك وللصغار انتزاعاً . وليس منع الرغيف هيناً كمنع العلم والويل لمن يقف في سبيلنا »(٢) .

لقد أمضى ذنون أيوب سنين طويلة في سلك التعليم ، وعانى الأمرين من الأوضاع الفاسدة التي كانت منتشرة في أجهزة الدولة كافة ومنها وزارة المعارف . وبما أنه كاتب واقعي يرصد الوقائع ويضعها في قصصه كما يقول في مقدمة مجموعته

---

(١) الآثار الكاملة ج٢ ، ٨٣

(٢،١) م. س ، ٨٤ ، ٨٥

التي رصدها لكشف المفاسد المنتشرة في وزارة المعارف :« في يقيني أن أعظم مهمة يجب على الأدباء والقصصيين منهم على الأخص أن يضطلعوا بها ، هي اعطاء صور صادقة لما يقع تحت ابصارهم من حوادث عجيبة وشخصيات غريبة وانظمة وقوانين حكومية أو شعبية ، يدخل ضمن ذلك تلك القوانين المكتوبة التي يخضع تحت تأثيرها المجتمع »(١) .فان الكاتب قد حصر كل المفاسد التي كانت تثقل كاهل وزارة المعارف وعرضها في قصصه ناشداً اصلاح مافسد واعادة الامور إلى وضعها الطبيعي ، ولكن فساد الحكم وصعوبة اصلاح الفساد المستشري في جهاز الدولة الاداري وانحسار التعليم وتفشي الأمية وقصر التعليم على الطبقتين الغنية والمتوسطة فقط ، جعل صيحات الكاتب المخلصة تبدد في وادي الفساد والتخلف . فهو يجسد الرشاوى المنتشرة فيها والمحسوبيات وفقدان العدالة والانصاف : « اخرج مذكرة صغيرة تحوي بعض الاشارات من ورق وسجل فوقها ثلاثة اسـماء تحت عنوان المرشحون للوظائف الشاغرة ... ولكن نظرة بسيطة مختلسة يلقيها على هذه المذكرة يطلعه على سر مهم من اسرار الدولة اذ سيجد بجانب كل اسم اسماً آخر لموظف كبير أو شخصية بارزة او رجل شهير . وكان سند الأول وزير خطير وسند الثاني رئيس تحرير جريدة سياسية مهمة وسند ثالث هو نفسه » (٢) .

واذا ماكانت الدرجات الوظيفية قليلة فيفضل دائما اصحاب الوساطة على غيرهم ويحلون محل اولئك الذين يستحقونها عن جدارة : « ..ولكن وزيراً مهماً يسند هذا الموظف ...

ـ أمر معاليكم مطاع . وتناول القلم وشطب اسم الشخص الوحيد الذي يستحق هذا المنصب عن جدارة بين هؤلاء الاربعة » (٣) .

وقد تبلغ المهزلة حداً كبيراً فبدلا من معاقبة الموظف المسيئ يرفع إلى مرتبة أعلى: «إن مديراً أعياه أمر أحد المدرسين فقدم تقريراً اضافياً عنه يكفي طرده ،فقد

(١، ٢) رسل الثقافة، ٣، ١٠

(٣) رسل الثقافة، ١٣

كان المدرس يصرف نصف السنة في الاجازات المرضية الكاذبة والنصف الآخر في الجلوس في الصف واشغال التلاميذ بالتوافه وكم كانت دهشته عظيمة حينما وجد وزارة المعارف تجيب على تقرير المدير بتحويل المدرس المذكور إلى التفتيش مع زيادة راتبه » (١) .

اما النصائح التي يسديها الموظفون الكبار لاصدقائهم أو أقاربهم من الموظفين الصغار فتؤكد على تفشي الجهل وفقدان العدالة وموت الضمير الانساني : «فأوصاه بمعرفة قدر الناس ومعاملة كل منهم حسب مركزه وتقديم الوجوه وأهل الفضل من المتنفذين على غيرهم وعدم الغرور واحترام من هم فوقه مرتبة أو منزلة دون نظر إلى علم أو شهادة ثم ودعه قائلاً : ــ وفقك الله يابني آمل أن أراك وزيراً في المستقبل » (٢) .

لقد كانت أمثال هذه الوصايا صورة مجسدة لتداعي نظام الحكم وانتشار الفساد. ويجسد أيوب صورة المسؤول الأداري في وزارة المعارف بأسلوب ساخر فهو لايهتم الا بمصالحه وبالاشياء الصغيرة التي لاقيمة لها وينسى واجبه الأساس في نطاق العلم والتعلم : «وأصبح كل عمله محصوراً في استقبال المراجعين والمستدعين ، فأما بفنجان القهوة وبالتلطف أو بالطرد الشنيع أي كل حسب مركزه الاجتماعي. ثم يهتم بشؤونهم كل حسب رتبته ومركز عائلته . وكان يضع نصب عينيه القاعدة الآتية : إن من يستحق الاهتمام والخدمة هم أولئك الذين لاملفة شخصية باسمهم في دائرته أولئك الذين يرفعون إنساناً ويضعون آخر بضحكة صغيرة أو بنكتة . وها هو يقضي في البيكوية عدة سنين ازداد خلالها شحماً ولحماً إذ قل عمله وتفكيره وأهمل العلم واصحابه » (٣) .

ان البيروقراطية التي نشأت عليها الأجهزة الأدارية في وزارة المعارف كانت احدى العوامل التي ادت إلى تخلف التعليم في العراق وانتشار الأمية . ولم تنج الامتحانات الوزارية (البكالوريا) من هذا الفساد على الرغم من انها كانت تقرر مصائر الطلبة ، وعدت وسيلة مهمة لفتح ابواب العمل أمام

(١-٢) رسل الثقافة ٣١، ٣٦، ٣٩، ٧٨

طالبيه : «ودخل الخادم وبيده ورقتان سلم أحدهما قدمها لي علناً وكانت منشوراً وزارياً لحث المصححين على النزاهة وعدم نسيان قدسية واجبهم ، والأخرى ورقة صغيرة سلمها لي بصورة سرية وكانت من رئيس اللجان يطلب مني بصورة سرية مساعدة أصحاب الأرقام الفلانية والفلانية » (١) .

وقد كان كثير من المدرسين المخلصين يثور ضد هذا الفساد ولكن هذه الثورات لاتتعدى حدود الفوران النفسي أو الحديث مع الأصدقاء ولكنها غير قادرة على الخروج إلى حيز التطبيق والتنفيذ : «وأغلقت وراءه الباب وأنا ألعن تلك الأوضاع التي تجبر الانسان اجباراً على خيانة واجبه وترغمه على عدم الاعتداد بعمله واحتقاره . وشعرت بالكره لأول مرة لعملي ولهذا المجتمع الذي يحرضك جميع افراده كبيرهم وصغيرهم عالمهم وجاهلهم غنيهم وفقيرهم ، أعظم مسيطر فيهم وأحقر صعلوك على خيانة الواجب » (٢) .

إن هذه الفورة العاطفية من قلم ذنون أيوب تدلل على أن أكثر الناس حرصاً على واجبه كان يخشى على رزقه ومورد عيشه . فقد كان العامل الاقتصادي الذي أخضع فيه الحكام الشعب لهم سبباً مباشراً في قدرتهم على البقاء رغم فساد الأوضاع وترديها واحساس جميع المخلصين بفقدان العدالة واحترام الانسان. بل ان السخرية كانت متنفساً لمعظم المخلصين في نفث خيبتهم وألمهم ، فهم يلقون عبء ضميرهم على الفساد المستشري وسوء النظام بدلا من الثورة ضد هذا الفساد وتغير الأوضاع الشاذة واعادة الحق إلى نصابه : «ان اخلاصك للنظام في وسط هذه الفوضى يعد غبناً على بعض الاشخاص ، فاذا راعينا سهولة الامتحانات الوزارية وعدم خبط نتائجها والتلاعب في درجات الممتحنين والتوسل بالحجج الواهية لزيادة الدرجات وجدنا دقتك هذه أمر لامبرر له وقد بلغني أن أحد كبار المربين في وزارة المعارف اقترح حذف الامتحانات الوزارية لما رآها مهزلة صورية تصرف عليها المبالغ الجسيمة والجهود العظيمة ويذهب كل

(١) رسل الثقافة ٧٨

(٢) م. س، ٧٥

ذلك دون فائدة فما كان مني الا أن ألغيتها أنا أيضاً وأعطيت درجات نجاح لكل التلاميذ بدون تفريق ، فأرضيتهم وارضيت الناس وارضيت المدير » (١) .

ان انتشار الفساد في وزارة المعارف وفي اجهزة التعليم جعل المدرسين المخلصين يكرهون عملهم ويحتقرونه ومن ثم لايؤدونه تأدية صحيحة : «يتذكر عمله اليومي المجهد وهو ادارة صف عدد تلاميذه ستون ومحاولة ادخال القواعد الرياضية وغرائب الأرقام في رؤوسهم الصغيرة المملوءة بالحيل الغريبة والخطط العجيبة للايقاع به والضحك على ذقنه والاستمرار على ذلك من الصباح إلى المساء دون فرصة أو انقطاع حتى يبح صوته وترقص الأرقام أمام عينيه وتمرق الخطوط الهندسية والزوايا والمثلثات أمامه تروح وتغدو وكأنها خناجر حادة تهدده بتمزيق خلايا دماغه » (٢) .

والنوع الآخر من المدرسين ، النوع الكسول الذي لايهتم بتعليم طلبته ولا يخلص في واجبه بل يقضي وقته بالضحك على الطلبة . ويقوم الطلبة بدورهم للضحك عليه كما في قصة (بقلاوة) وهي تدور حول مدرس مترهل عصبي المزاج مهمل يدرس الجغرافيا ولا يعرف منها الا روسيا التي قضى فيها عدة سنوات عندما سيق جندياً في الحرب العالمية الأولى ، وهو يحب البطيخ حبه لروسيا ، وفي الفصل وهو يحدثهم عن البقلاوة في روسيا . دخل عليه عليه المفتش والطلبة غارقون في الضحك، يرتبك المدرس ويغير الموضوع ويروح يتحدث عن طبقات الأرض بعد ان كان يتحدث عن طبقات البقلاوة. وعندما يخرج المفتش من فصله يعود إلى الضحك مع طلابه ويعاود حديثه عن البقلاوة.

اما النوع الثالث من المدرسين فهم القساة الذين يعاملون تلامذتهم الصغار بالبطش والضرب ويثيرون الخوف والهلع في نفوسهم : « واستعرض التلاميذ بنظرة فاحصة فيها معنى الغطرسة والسطوة، كيف لا، هو يحكم هذه الكتلة الكبيرة من هؤلاء الملاعين الذين لايسلم أحد من شرهم ومكرهم. هذه الكتلة الكبيرة التي يكفي أربعة من افرادها لحمله ورميه في الخارج،

(١ - ٢) م . س، ٥٩ - ١٢٤

وهو لايحكمهم فقط بل ويخيفهم إلى حد بعيد، هاهم ساكتون جامدون لاتبدو فهم بادرة ولانأمة ولايجسر أحدهم حتى على تحريك رأسه.) أو الالتفات إلى جهة من الجهات وقد علقوا أبصارهم بوجهه ورأسه الأصلع(١)».

ومن المدرسين من يعنى بالشغب ونقل الأخبار وخلق الفتن بين المدرسين ناسياً واجبه الاساس القائم على تعليم الصغار وتربيتهم كما في قصة (السيد عبيد في لهوه) وهي قصة معلم مشاغب مهمل سكير مثير للشغب حاقد على زملائه الذين شقوا طريقهم في الحياة بخطى أوسع فيثير الشغب لعله يصل إلى هدفه عن هذا الطرق فينجح.

ان المساويء الكثيرة التي عجت بها وزارة المعارف وانخفاض مستوى المعلمين أدى إلى نجاح الطلاب المتخلفين والكسالى من غير حق في النجاح، ويبقى أمثال هؤلاء، متخلفين حتى في حياتهم العملية كما في قصة (سيرة وسيرة) وتدور القصة حول زميلين قديمين في المدرسة يلتقيان بعد فراق طويل. (ماجد) الذي استطاع أن يشق طريقه في الحياة على الرغم من كسله في الدراسة وتخلفه . وقد اتخذ من النفاق واقتناص الفرص والتلون سبلاً للوصول.

أما زميله سالم فعلى الرغم من ذكائه وتفوقه العلمي لم يحصل الاّ على وظيفة بسيطة ولكنه مقتنع بها لانه شق طريقه بشرف وجهاد واخلاص . وهو اكثر سعادة من ماجد الذي بقي متخلفاً في رؤيته للحياة واسلوبه في البقاء فهو يسعى لاهثاً للوصول مما يهد كيانه ويضعف قلبه ويجعله سخرية في نظر الأذكياء: «وفتقت لي الحيلة أن أدرس شخصيات هؤلاء الذين يتناوبون الجلوس على الكراسي ومن حسن الحظ أن عددهم كان محدوداً فخالطت البسطاء منهم والعظماء الاذكياء والاغبياء واتصلت بهم جميعاً بطريقة لاتوجب الشبهة ولا تثير العداء الحزبي ضدي » (٢) . وهو لم يصل إلى ما وصل اليه الا عن طريق الوشاية بزميلائه

(١ -٢) م. س، ٤٣ ٩٨،

والكيد لهم : « وحدث أن تغير رئيس دائرتنا على أثر تبدل الوزارة فرأيت الفرصة سانحة وأبلغت الرئيس الجديد بأن هذا الموظف من اكثر أنصار سلفه واستشهدت بالتقارير المقدمة عنه بالتقدم الذي حازه في وقت السلف فحوله إلى دائرة أخرى برتبة أقل من رتبته بجرة قلم وبقيت صاحب الحول والطول في تلك الدائرة » (١) .

إن حال هولاء الانتهازيين المتخلفين ينطبق عليها قول سالم في القصة : ان الناس عبيد المادة ير ن وراءها كالكلاب الجائعة تستعبدهم السطوة والجاه يلحسون اليد التي هم ويقبلون السوط الذي يلهب ظهورهم » (٢) .

وقد يصبح التعلم سوطا يلهب ظهر متلقيه اذا لم يكن دخول المدرسة للتعلم والتثقيف بل يصبح واسطة للوصول إلى المناصب وجني الارباح والرشاوى كما في قصة (نحو القمة) قصة الدكتور ابراهيم — والذي كتب ذنون ايوب رواية كاملة عنه بعد ذلك باسم الدكتور ابراهيم عام ١٩٣٩ — عزة ابراهيم ابن الرجل المشعوذ الذي استطاع استغلال جهل السذج من الناس فقد استخدم والده جميع الاساليب والوسائل للأخذ بيد ابنه حتى ينهي دراسته ويرسل في بعثة إلى الولايات المتحدة . ويعود الدكتور ابراهيم إلى العراق وقد تشبع بالمبادئ الميكافيلية فيتعرف بالوزراء والوجهاء ويعين مديراً عاماً فيسعى إلى تقريب اصحاب الجاه من المراجعين ويعتنق جميع المذاهب السياسية دون احساس بتناقضاتها ، وعندما يصبح مديراً عاماً للبعثات يحجب البعثات عن الطلبة الأذكياء ولايرسل الا الاغبياء البلداء من ذوى الوساطات والجاه لقد كانت الشهادة بالنسبة اليه سلماً للوصول وليس وسيلة لخدمة وطنه وهكذا ألهب التعلم غير الموجه ظهر الدكتور ابراهيم فدفعه إلى العمل كجاسوس لصالح دولة اجنبية ، وينتهي الدكتور ابراهيم نهاية سيئة هي جني مازرعت يداه وما زرع والده وما زرع تعليمه غير الموجه : « وهاهو يستقبل حياة

(١-٢) م .س، ١١١، ١٠١

العمل التي لاتتعدى في نظره تقديم شهادته إلى وزارة الزراعة ليكون مرشحا لتبوء في منصب حكومي في وزارة الاقتصاد بحق ، سيفرض على الناس أن يسموه دكتوراً ويجيد المقالات بامضاء دكتور من جامعة » (١).

ومثل هذا التوجيه التعليمي السيء الذي اصاب الدكتور ابراهيم كان من نصيب بطلـــــة قصة (ساقطة) فقد دخلت المدرسة للتعلم ولكنها انشغلت عن دروسها بسبب سوء التوجيه من قبل مدرستها واهلها بالتعرف على شاب احبته فنكل بها وتركها للانحدار نحو هاوية السقوط : « ودفعتني جرأتي إلى اطلاع أبوي على سري فكان حزنهما وبؤسهما عظيماً واعتبراني ساقطة عديمة الشرف لأني فقدت بكارتي بطريقة غير شرعية ... حدث أن قضي والداي حزناً بعد ان فشلا في محاولة قتلي بالسم وعندما وجدت نفسي وحيدة لامعين لي ولاناصر ... فسقطت مرة واحدة في أعين الجميع (٢) ».

ان هذه المساويء العديدة كانت السبب في انتشار الأمية والجهل في العراق حتى نهاية الحرب العالمية الثانية كما عرضهـا ذنون ايوب في قصصه وسبب الجهل وانتشار الأمية نتائج خطيرة على الفرد والمجتمع .

القسم الثاني نتائج تفشي الجهل والامية

١— جهل المرأة يقود إلى السقوط وتردي الاخلاق كما في قصة (من وراء حجاب) التي تحكي قصة فتاة محجبة من أسرة محافظة ، كانت لاتخـرج من الدار الا لماماً وذات يوم لاحقها شاب في الطريق ومضى يترقبهـا دائما كلما خرجت إلى السوق حتى استطاع اصطيادها بعد تكرار محاولاته معها ، وبعد صدّ وتمنع انهارت مقاومتها وسقطت،ولولا جهلها وعدم معرفتها لشؤون الحياة لما سقطت هذا السقوط المأسوي : « وتكررت المقابلات وزادت مدتها وتنوعت أحاديثها وتطورت العلاقة بين الاثنين واستفحل امرها ولم تعد ترى فيها غرابة او شذوذ بعد أن اعتادتها » (٣) .

---

(١)برج بابل ، ٨٧

(٢) الآثار الكاملة ج١، ١٠٢

(٣) م س ، ١١٢

ويقود الجهل بطلة قصة (حيثما تثور العاصفة) الى السقوط ومحاولة الانتحار للتخلص من مأساتها « — لماذا أنقذتني ؟ وما شأنك أنت ونفسي ؟ ... لأني لا أريد ان أكون عاهرة...وسكتت وقد شرقت بدموعها فكمل رفيقي بقسوة:— وأودع في أحشائك جنيناً فضح علاقتك به ونبه أهله اليك وأثار قيامتهم عليك»(١).

ولم يكتف بطل القصة بانقاذها من الموت بل خلصها من حياتها السابقة ووجد لها عملا شريفاً وبدأ يعلمها القراءة والكتابة وعندما وجدت أنه لايحبها لجمالها حاولت ان تغلب عقلها على عاطفتها وتثير اعجابه عن طريق شعورها بالقوة والاستقلال .

ان جهل المرأة لايعود بالضرر عليها فقط بل يتعدى الضرر الى الزوج فيقوده الى الجنون كما في قصة (جنون) السابقة الذكر حيث تؤثر العقاقير التي يعطيها الساحر للزوجة لكي تعيد اليها زوجها في جهازه العصبي وتقوده الى الجنون كما يقود جهل الزوجة الى شقاء الزوجين واسوداد حياتهما وينتهي بهما الى الطلاق كما في قصة (زوجته) الآنفة الذكر .

٢— ويقود الجهل الى الفقر والتشرد كما في قصة (الآراء الهدامة) فبيوت الفقراء الطينية تجرفها سيول الامطار ، وتسقطها فوق ساكنيها فتميتهم وهم لايشعرون بمدى مأساتهم وانهيار احوالهم وتشردهم ، فقد كان الجهل سبباً مباشراً لما حل بهم من مآس : «ياللسماء لقد اختفت محلة كاملة من خارطة هذه الجهة ، ترى اين ذهبت المنازل الطينية ، فتذكرت على الفور تلك المنازل السائحة في الارض فخيل الي انها قد شاخت شيئاً فشيئاً حتى اختفت تحت سطح الأرض ولم يعد لها من أثر ، ومر بنا في تلك اللحظة جماعة من سكانها عارية اجسامهم ليس عليها مايستر العورة ، يحملون أواني مكسرة وينوء بعضهم تحت ثقل جذوع من النخيل وكان البعض يبكي ويعول ، والبعض يضحك دون التفات الى ما حل به ، ومر أحدهم يحمل أدوات البناء التي يعمل بها ..لقد هربنا من المنازل عند نزول المطر وتمتعنا بحمام بارد بضع ساعات نحن وأدواتنا القليلة واثاثنا

---

(١) م. س ، ٢٠٨

البسيط ولكن عشرة منازل كان أصحابها غارقين في النوم لشدة ما أصابهم من الاعياء أثناء نهارهم لم ينتبهوا الا على صوت السقوف تطبق عليهم » (١)

٣– ويقود الجهل الى التسمم والموت كما في قصة (حلم المعيدي) فقد تناول وجبة عفنة أصابته بالتسمم وكانت سبباً في موته : «بعد أكلة دسمة من السمك اصابته بالتسمم وكانت سبباً في موته :«بعد أكلة دسمة من السمك المنتن الذي تشم رائحته على بعد فرسخ ورغيف من – الطابك – وليس هذا الطابك سوى عجين من دقيق الذرة مشوي فوق أرض طينية قد أحرق فوقها الوقود ، فالرغيف يجتمع اذن بين دقيق الذرة ورماد الحطب وطين الارض فهو مزيج منها » (٢) .وتأتيه كوابيس مخفية أثناء سريان العفن في أمعائه فيرى حلماً يؤنبه فيه الملاك لأنه لم يتعلم القراءة والكتابة فيجيبه المعيدي مبرراً جهله : «أجل أيها الأله لم أتعلم القراءة والكتابة والقرآن وأين هو الوقت الذي أتعلم به كل هذا وأين الثمن الذي أدفعه لمن يعلمني » (٣) .

٤ – الجهل يقود إلى القذارة والمرض فالموت، يعرض ذنون ايوب في قصة (آلام مزمنة) مأساة فلاح تعرض الجندرمة الاتراك لزوجته فقتل الجندرمة وهرب بأهله إلى الصحراء، وبعد مضي سنوات عديدة قضتها الأسرة في فقر مدقع ومرض وموت سمع بخروج الأتراك من البلاد واحتلال الانكليز لها، فعاد إلى قريته ليسترد أنفاسه بعد كل ذلك اللهاث والتشدد فوجد أن أهله قد ماتوا وأن ابن عمه قد استولى على كل مايملك ولم يستطع ان يسترد املاكه من ابن عمه لأن ابن عمه كان عميلاً للأنكليز ضد وطنه، فعاد الرجل إلى حياه التشرد ثانية.

ويصف لنا الكاتب القذارةالتي كانت تحيط بخيمته وتملؤها بالذباب: « وبرز في الكوخ على الأثر شيخ مديد القامة لايختلف لونه ولون ثيابه عن لون ارضه وكلبه، أما وجهه فقد شابه في تجعداته حقله المحروث...

---

(١) م. س، ٤١٣ – ٤١٤

(٢،٣) م.س، ٣٩٧، ٤٠٣

ووجدت اننا لم نكن الوحيدين الملتجئين إلى ظل هذه السقيفة فقد كانت هناك امرأة الشيخ وحمار الشيخ وشيء اخر ممدد على الارض وعدد هائل من الذباب قد سقط بعضه على الروث والأوساخ وتراكم معظمه على هذا الشيء الذي لم اتميزه ... وسمعت على أثر دخولنا صراخ طفل فلم أدر من أين أتى ورأيت كومة الذباب تنفر ورأيت الأعرابية تحمل لفافة من الخرق بلون الأرض واذا بذلك الشيء طفل رضيع حملته والقمته ثديها» (١).

وقد ولدت هذه القذارة المحيطة بالجهلة بالاضافة إلى تلوث البيئة أمراضاً مزمنة سببت كثرة الوفيات ولاسيما بين الاطفال: «لقد مات أخواي في العام الماضي الواحد بعد الآخر وقبل شهر مات ابني الكبير وماتت ابنتي البارحة...

— وبأي مرض ماتت ابنتك ؟

— لاأدري لقد شكت من بطنها مدة شهر قبل موتها وهذه الصغيرة تشكو نفس العلة. وتقدم الطبيب ففحص الطفلة ثم قال: إنها مصابة بالزحار المزمن ويظهر أن جميع أفراد العائلة مصابون بالرمد المزمن أيضاً. انظروا إلى عيونهم.

ولم يفهم المفوض معنى كلمة مزمن فتساءل: وما معنى مرض مزمن؟ فأجاب الطبيب: — حينما تلازم بعض الأمراض الانسان مدة طويلة تصبح مألوفة لديه ولايعود يشكو من آلامها الحادة كثيراً وفي هذه الحالة يصعب شفاء المرض» (٢).

وفي قصة (ملاريا) يحكي لنا ذنون ايوب قصة قرية مياهها ملوثة يكثر فيها بعوض الملاريا فتفشى المرض بين جميع سكان القرية وأصابتهم الحمى والرجفة القاتلة وكل ذلك بسبب جهلهم بالأمور الصحية وثقتهم بالسحرة والعرافين اكثر من اهتمامهم بالاطباء والدواء: « وأحاط بالسيارة جمهور

(١، ٢) م. س، ٣٧٩ — ٣٨٠، ٣٨٢، ٣٨٣

كبير من الفلاحين، وجوه كئيبة هزيلة لونها أصفر فاقع يسوء الناظرين للموت والفناء، أثر يبدو في كل قسمة من قسمات تلك الوجوه في تلك العيون التي يوشك بريقها أن ينطفئ، وفي تلك الخدود الشاحبة والشفاه المتقلصة اليابسة... وسأل الطبيب عدداً منهم عما يشكون منه فما سمع جواباً غير عبارة واحدة(رجيفة، عمي رجيفة... وكان إلى جانبهم الاطفال هم صورة حية للسقم ولهذا النوع الخاص منه، تنطق به وجوههم الصفراء الهزيلة وبطونهم المنتفخة وكانت القذارة قد زادت منظرهم كآبة...

سأل الطبيب عن عدد المصابين فأجاب رئيسهم: — جميع القرية مصابة بداء واحد...

وأجاب اكثر من واحد: — هناك النساء والشيوخ والذين لايستطيعون ترك البيوت لشدة وطأة الداء.

وقصدنا تلك البيوت أو بالأحرى تلك الأخصاص الطينية التي يسميها القوم بيوتاً وما هي في الحقيقة سوى جدران أربعة يعلوها سقف من القش أمام بابها فناء صغير جدرانه أكوام من الشوك يستطيع ان يتخطاها صبي نشيط. وفي ظلمات تلك الأخصاص القذرة طالعتنـا وجوه كالحة شاحبة تئن وترتجف فتسمع صوت اصطكاك أسنانها فتحسبه صوت اسنـان جرذ تحرق الأرم من ألم الجوع... وعلمنا أن بجوارهم مستنقعاً وبيئاً و علمنا انهم لايدفنونه لأن ذلك يكلفهم مالاً لايملكونه أو بالأحرى وقتاً لايستغنون عنه وجهداً لايستطيعون صرفه في غير العمل في الحقول لكسب القوت» (١).

ويعرض ذنون ايوب في قصة (تيفوئيد) انتشار هذا المرض الوبيل في قرية شمالية تفتقر إلى العناية والنظافة والارشاد الصحي، وتؤمن بالوصفات البلدية كوسيلة للعلاج: « يجب أن يعدّ للأمر عدتـه فهذا المرض الثقيل لايمكن أن يكون هزلاً فليس هو (مراري) ملاريا ولا (قبز) إمساك. انه شيء قد يفضي بالانسان إلى قبره، وهو يعرفه جيداً لانه يشيع بكثرة في قراهم الجبلية،

(١) ، الآثار الكاملة ج٢، ٩— ١٢

وهم يداوونه بالاحاجي والأدعية وماء (الباجه)الكوارع عادة». (١) وعندما اشتدت عيه وطأة المرض وهذيان الحمى : « وضعت — جدته — يدها على رأسه وصارت تتمتم التعاويذ وتنفخ في وجهه ثم صممت على زيارة الشيخ سويلم فهو الوحيد الذي باستطاعته ان يشفي الانسان من المس ويطرد الأرواح الخبيثة ، وأتته في اليوم الثاني بقطعة من السكر وبعد أن رأته يضعها في فمه قبلته وخرجت مطمئنة فقد عزّم على القطعة الشيخ الولي ونفخ فيها عدة مرات. ولم تنس عند خروجها أن تلقي نظرة كره على الاطباء والممرضات وعجبت كيف يشفى الانسان وسط هؤلاء الكفرة والزنادقة.» (٢)

وهكذا كانت الأوبئة والأمراض تنتشر وتسري في الخلق سريان النار في الهشيم بسبب الجهل والتخلف والايمان بالخرافة والمشعوذين والسحرة.

٥— الجهل يقود إلى الخنوع والاستسلام وعدم القدرة على أخذ الحقوق.

إن حالة الفقر الذي كان يعاني منها الشعب العراقي وانتشار الأمية والجهل والمرض كل ذلك أدى إلي الخنوع والاستسلام للحصول على لقمة العيش ، فنحن نجد (نعيور) ساحب السفن في نهر الفرات لايأنف من أكل فضلات الطعام كما عرضه ذنون ايوب قصة (النوخذه) :

« واكثر من التردد علينا رغم اعتقاده بنجاستنا وصار يستهلك ما يتبقى من طعامنا ويشارك خادمنا الكسوة العتيقة ويتمتع بما نجود به عليه من الدراهم وعلى رأسه ينصب القسم الاعظم من فكاهتنا ونكاتنا وهكذا أصبح محور أنسنا ودعابتنا، ولهذا الرجل طبيعة ساذجة قد حملتها الحياة أعباء ينوء تحت ثقلها اكثرنا جلداً ولكنه يتقبلها كقدر محتوم...ان لنعيور زوجة وخمسةاطفال يعيشون مثله على خبز الشعير أو خبز الذرة لايرون وجهه ولا يراهم الا بضعة أيام في السنة عند ما يمر بهم في سفينته التي يجرها اكثر مما تحمله . لشد ما يدهشني مبلغ قناعة هؤلاء الذين لايجدون ما يسدّ رمقهم ... ان الامر قد يربك الانسان لأول وهلة ولكنه لايلبث ان يجد له حلا في سطوة رجال الدين (الموامنه)

(١-٢) الاثار الكاملة ـ ٢٢،٢ - ٢٣،٢٧

على نفوسهم وعقولهم . ويوجه اعمالهم نحو هدف واحد هو اقناعهم بوجوب طاعة الرؤساء من رجال الدين ورجال الاقطاع » (١) .

وقد تعرض الفلاحون الجاهلون إلى الكثير من الأهانات والشتائم من قبل الموظفين ورجال الشرطة والاطباء وهم متقبلون الأمر دون احساس بالمهانة او الذلة وكأن الامر عادي جداً وعكسه هو الشاذ،وقد عرض ذنون أيوب هذه الحالة في العديد من قصصه مبينا أثر الجهل والفقر والمرض في توليد الذل والخنوع والاستكانة عند الشعب المسكين وهذا هو ما كانت تلجأ إلى نشره الحكومات المتسلطة في العراق والنظام الملكي المباد بتحريض من المستعمرين الانكليز الذين كانوا يشجعون استمرار الذل والاستسلام لدى الشعب ليتمكنوا من تحقيق مطامعهم الاستعمارية : « وانهالت اللعنات من المفوض والطبيب وأصاب الفلاحين الثلاثة » (٢) . ويعرض الكاتب في قصة (آلام مزمنة) مبلغ الاهانة التي يتعرض لها الفلاحون والبدو من قبل رجال الشرطة والموظفين في الماضي : «واصبح مزاجه لايطاق وكان ينفس عن كربه بشتم البدو . ورأيتني ميالا الى الانتصار لهذه الفئة البائسة فقلت له : — رفقاً أيها الصديق لقد أعانوك على عملك ثم هم قد دفعوا لك أجرة كاملة كما دفعنا فأسكت عنهم على الأقل هذا اذا لم ترد أن نشكر هم .

فاعترض المفوض بقوله : — وما الفائدة من الدفاع عن أمثال هؤلاء الحمير، انظر كيف يتقبلون الاهانة باسمين .

قال الطبيب مازحاً : لعلهم مصابون بالاهانة المزمنة أيضاً .

فأجبته بألم : — لاريب ولكن هؤلاء يكونون الاغلبية الساحقة من سكان العراق » (٣) .

إن سيطرة الذل والخنوع على الشعب العراقي الفقير في تلك الفترة جعل السلطة تتمكن منهم وتسلبهم أموالهم وتتعرض الى حريمهم وتفعل بهم كل ما تريد

(١ — ٣) الآثار الكاملة، ج١، ٣٦٠ — ٣٦١، ٣٧٨، ٣٨٣

فاذا ماثاروا سلطت عليهم قواتها لابادتهم وهكذا استسلموا لأقدارهم ولم يستطيعوا المطالبة بحقوقهم ولا رد ما سلب منهم من منقول وعقار : «وبعد ان اغتصب الجند ما بقي منها وجدنا أنفسنا لانملك غير انفسنا وبنادقنا ... ولم يبق في قيد الحياة سواي وسوى أمي العجوز وزوجتي وأخوي الصغيرين ، ولما وجدنا انفسنا ضعفاء لا سلطة لنا ولا معين هاجرنا الى بادية الشام وهناك عشنا على الصدقات خمس سنوات ثم اشتغلت عند أحد اصحاب الابل فاستطعت أن أحصل من التمر والزاد ما أسد به رمق العائلة ، وقبل عشر سنين بلغني أن دولة الأتراك قد دالت وأن حكومة عربية قد تشكلت فطرت بالخبر سروراً وقلت سأسترد حقوقي علي وأتيت بلادي وقصدت أرضي فوجدتها ملكاً لأحد خدم كاظم باشا قد سجلها باسمه في الطابو ، وعلمت أن المالك الجديد صديق حميم وعبد مطيع لولاة الأمور يقدم لهم قسماً من غلته ومحصوله في سبيل تمهيد الأمور له .

وأخيراً ضحيت بحريتي وبكل أماني نفسي في سبيل البقاء في ربوع الطفولة فتقدمت للخدمة عنده (١) وهكذا تنقلب الأمور فيصبح صاحب الحق خادماً ويضحى المغتصب سيداً بسبب جهله وغفلته وعدم قدرته على أخذ حقه .

(٦) الجهل يقود الى الجريمة والخروج عن القانون

وقد يدفع الجهل وعدم القدرة على أخذ الحقوق بطريق مشروع الى التمرد والخروج على القانون كوسيلة للعيش : « فاضطرتنا الحاجة الى قطع الطرق على المسافرين واغتصاب ما يسد رمقنا منهم لقاء حمايتهم من بقية لصوص البوادي ولكن الحكومة لم تكف عن مطاردتنا بل شددت علينا النكير حتى سقط أبي وأخي الكبير في يدها فشنقتهما » . (٢)

وقد اندفع (حزباوي) بطل قصة (المشنقة) وراء الشيخ بعد أن دعاهم على غذاء دسم للقتال دون أن يعرف عنه شيئاً ومن غير ادراك منه عن اسبابه

---

(١) م. س، ٣٨١–٣٨٢

(٢) م. س ٣٨١

ونتائجه وبعد أن انهزم الشيخ القي القبض على حزباوي وحكم عليه بالشنق وهو لايدرك كنه الامر ولايعرف ماهي المشنقة، كما لم يعرف لماذا اندفع في القتال وراء الشيخ ضد الحكومة : « ولو لم تحدث الفاجعة التي سلبته داره وزوجته لما اشترك في تلك الثورة الخطيرة التي كان اكثر الناس جهلا بأسبابها ومبرراتها ومقاصدها فقد حدث أن حريقاً شب يوماً في بضعة اكواخ ، فالتهمتها النيران من جملتها كوخه أما زوجته فكانت تغط في نومها اثناء ذلك فاصيبت بحروق لم تمهلها اكثر من بضعة أيام ... وعلم أنه سيموت شنقاً أي بواسطة أداة تسمى المشنقة . ولم يهتم بالموت أو يستغربه فقد أدرك عندما سقط بأيدي الجند أنه مقضي عليه لامحالة ، ولكن كلمة المشنقة كانت غريبة جداً في مسامعه . ترى ماهي المشنقة التي تميت الانسان ... فقد كان اغلبهم أجهل منه بهذه المشنقة وطريقتها في قتل الانسان » . (١)

وهكذا قضى حزباوي ضحية للجهل ولأمور لم يكن يعرف كنهها .

٧ – الجهل يقود إلى الفوضى واضطراب الأمن . فاذا ما اختل الأمن في الداخل وضعفت سيطرة الحكومة على أمور البلد ، سعى الجهال مشيعين الفوضى في جميع الارجاء بدلاً من ضبط النظام وصيانة الحقوق والمحافظة على أرواح العباد ، وقد عرض ذنون أيوب هذه الفوضى الناتجة عن الجهل وانتشار الأمية في قصته (قصة مدينة سائبة) وهي تحكي ماحدث في بغداد في أوائل الاربعينات عندما عمت الفوضى وضعفت سيطرة الحكومة وعم النهب والسلب في المحلات التجارية : « فابواب العمارات والدكاكين كانت تتداعى أمام ذلك السيل الجارف ثم لاتلبث أن تصبح خالية خاوية .. كل فرد فيه يحمل شيئاً مما يصادفه في طريقه ...انه ليخيل للرائي أن هذا السيل من البشر قد انطلق عن قصد ليقوم بمهمة التخريب ومن بعدها بمهمة التنظيف واستمر هذا السيل يخترق الشوارع يعمل عمله الذي كان يجري على وتيرة واحدة فتراه في كل مكان لايكاد يقف امام حانوت حتى تذوب الاقفال ويتطاير الباب وإن

---

(١) ٣٦٧ – ٣٦٩

هي الا لحظة أخرى حتى يتنظف المحل مما كان فيه فلا يبقى ... لقد طاب للقطيع هذه المرة أن يقتل ... مضى يطمن ما انتبه في نفسه من غرائز الهمجية وذلك عندما انفك القيد وانطلق على هواه ولم ينفس عن غرائز هذه بمهاجمة الأقوى بل بقتل الأضعف » (١) .

وقد سبب الجهل المجاعة التي حلت في الموصل عام ١٩١٧ فقد كانت السنة سنة جدب قلت فيها الأمطار ويبس الزرع واستغل التجار الفرصة فرفعوا اسعار المواد الغذائية ونفدت المواد الغذائية للجيش العثماني في الموصل فسلبوا المواد الغذائية المخزونة في البيوت فعمت المجاعة واكل الناس الأعشاب ولحوم الكلاب والقطط وارتكبت جرائم قتل كثيرة حتى لجأ بعض المجرمين هو وزوجته الى ذبح الاطفال وتقديم لحومهم للآكلين وقد كان لانتشار الأمية والجهل وفساد نظام الحكم وعدم قدرة السلطة الحاكمة المهزومة في الحرب على السيطرة فمات عدد كبير من الناس جوعاً وعمت الجرائم والأوبئة .

وقد عرض ذنون أيوب كل المآسي التي حدثت في الموصل في تلك الفترة بسبب الجهل والتخلف في قصة (بوق الحرب) : «ولا يكاد يمر على خروج أبي نصف ساعة حتى يهتز البيت بصيحة مرعبة (جوعان) فنجمد رعباً عند سماعها تتكرر كل يوم ، ونسكت مبهوتين فتتمتم الخادم : — هذا يونس المسكين .

ونسمع صوت نشيج خافت يأتي من صومعة جدتي ممتزجاً بالتضرع الى الله أن يرفع عن البشر تلك الغمة ...استمر يونس يستخدم ثقب الباب صوراً ينفخ فيه مدة تزيد عن الشهرين وقد بدأ نداءه الاول عندما انتصف الخريف وخلت الطرق من الجيف المنتنة والكلاب السائبة ، واختفت القطط من منازل الموسرين هرباً من أنياب الجائعين ...وسمعنا صوت السائق يهيب بمساعده ، هو ذا يونس قد جمد من البرد اليوم ، لقد أتى دوره أخيراً ورأيناهما يحملانه من يديه ورجليه فلا ينطوي جسده ويرميانه فوق رفاقه وكأنه جذع شجرة قوية مجتثة وأسرعنا الى الدار ونحن ننعى يونس لكل من فيه » (٢) .

(١، ٢) الآثار الكاملة ج٢، ٨٧ — ٨٩، ٥٩ — ٦٢

٨ ــ ان الجهل يدفع الى تمزق الاسرة وحدوث الصراع والشقاق فيها ، ففي قصة (الثائر) يندفع (اوحيد) لجهله وراء شيخه الذي طالما استغله واقتطف ثمار عرقه ، بينما انضم ابن عمه الى الجيش ، والتقى ابنا العم في معركة لايعرف كل منهما لماذا يقاتل فيها، انه الجهل الذي قادهما الى معركة لاتعنيهما مطلقاً: « وكان منظر المتقاتلين غريباً حقاً ، قسم يدافع عن شيخه ورئيس قبيلته وقسم يدافع عن ملكه وحكومته وكلهم من قبيلة واحدة ولا أظن انه خطر في بال أحد من الجنود او الثوار أن سبب كل تلك المجزرة كان كرسيا في مجلس النواب.أما الحكومة الانكليزية فقد أضافت فصلا جديداً الى كتاب خطط الاستعمار وأساليبه » (١) وفي الختام لقد جاء قانون محو الامية والتعليم الالزامي صرخة قوية ضد التخلف والجهل والاستعمار وقضى على اسباب الجهل ونتائجه.

---

(١) الآثار الكاملة حـ١، ٣٩٣

المصادر :

١ — ذنون أيوب . رسل الثقافة ، بغداد م. العربية ، ١٩٣٧، ٩٨صفحة

٢ — ذنون أيوب ، صديقي ، بغداد ، م. الأهالي ، ١٩٣٨، ١٣٢صفحة

٣ — ذنون أيوب ، وحي الفن ، بغداد ، م، الأهالي ١٩٣٨، ١٤٣صفحة

٤ — ذنون أيوب ، برج بابل بغداد ، م، الأهالي ١٩٣٩، ١١٤ صفحة

٥ — ذنون أيوب، العقل في محنته، الموصل، م . أم الربيعين، ١٩٤٠، ٩٤ صفحة

٦ — ذنون أيوب ، الضحايا ، بغداد ، بلا ، ١٩٣٨، ١٠٤ صفحة

٧ — ذنون أيوب ، الكادحون ، الموصل ، أم الربيعين ، ١٩٣٩، ٩٨ صفحة

٨ — ذنون أيوب ، حميات ، بغداد ، م، الأهالي ، ١٩٤١، ٥٧ صفحة

٩ — ذنون أيوب ، الكارثة الشاملة ، بغداد ، م. الرشيد ، ١٩٤٥، ٤٢ صفحة

١٠ — ذنون أيوب ، الآثار الكاملة لأدب ذي النون أيوب ط بغداد ، م. الحرية ، ١٩٧٧، ٥٦٥ صفحة

١١ — ذنون ايوب، الآثار الكاملة لأدب ذي النون ج ٢ ط بغداد م . الحرية، ١٩٧٧، ٩٨١ صفحة